

الدولة الأموية

من سنة ١٨ إلى ١٧٧ إمارة معاوية بن أبي سفيان

لما هلك يزيد بن أبي سفيان والي دمشق سنة ١٨ ولى عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان فلم يزل واليا لعمر حتى قُتل عمر، ثم ولاه عثمان بن عفان وأقرّ عمال عمر على الشام، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكناني وكان على فلسطين ضم عمله إلى معاوية. وكان عمير بن سعيد الأنصاري في سنة ٢١ على دمشق والبثينة وهوران وحمص وقنسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وإنطاكية ومعرة مصرين وقلبية، ثم جعل عمير في سنة ٢٣ على حمص ومعاوية على دمشق، ثم تولى عمير بن سعيد حمص وقنسرين، وعلقمة بن مجرّز فلسطين، وعمير بن سعيد هو الذي قال على منبر حمص: ألا إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق، فجائط الإسلام العدل وبابه الحق، فإذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسلام منيعا ما اشتد السلطان وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل.

اجتمع الشام على معاوية لستين من إمارة عثمان، أي في السنة الخامسة والعشرين للهجرة أضاف عثمان إلى معاوية حمص وحماة وقنسرين والعواصم وفلسطين مع دمشق ورزقه ألف دينار كل شهر.

وبعث معاوية عمرو بن العاص إلى مصر ومعه أهل دمشق عليهم يزيد بن أسد البجلي، وعلى أهل فلسطين رجل من خثعم، ومعاوية بن حديج على الخارجة، وأبو الأعور السلمي على أهل الأردن، فساروا حتى قدموا مصر فاقتتلوا بالمسناة وعلى أهل مصر محمد بن أبي بكر فهزم أهل مصر بعد قتل في الفريقين جميعاً،

قال عمرو: شهدت أربعة وعشرين زحفا فلم أر كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ. فلما هزم أهل مصر تغيب محمد بن أبي بكر فأخبر معاوية بن حديج بمكانه فمشى إليه فقتله.

ومن الأحداث مع الروم غزوة معاوية بن أبي سفيان سنة ٢١ وصلاح أبي هاشم بن عتبة على قليقية وإنطاكية ومعة مصرين. وجاشت الروم ٢٤ حتى استمد من بالشام من جيوش المسلمين من عثمان مددا فأمدهم بثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فدخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم وشنوا الغارات فأصاب الناس ما شاءوا من سبي وملئوا أيديهم من المغنم وافتتحوا بها حصونا كثيرة، وغزا قبرس ٢٨ فصالحه أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة. وخرج أهل الشام ٣١ وعليهم معاوية وعلى البحر عبد الله بن سعيد، وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بإفريقية في جمع لم يجتمع للروم مثله قط مذ كان الإسلام فخرجوا في خمسمائة مركب، فربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض حتى كان يضرب بعضهم بعضاً على سفن المسلمين وسفن الروم وقاتلوهم أشد قتال، ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجثون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما. ثم انتصر المسلمون وانهزم قسطنطين مدبراً فما انكشف إلا لما أصابه من القتل والجرح.

وافتح معاوية جزيرة أرواد في السنة الثالثة لعثمان وهدم سورها وأحرقها وجلا أهلها إلى الشام. ووجه ملك الروم إلى معاوية يسأله الصلح، فأجاب إليه على أن يكون عنده من أهل بيته رهائن. وفي السنة الثامنة لعثمان وجه معاوية بجيوش إلى جزيرة رودس فأخذوها ورتبوا بها المسالح وجعلوها منظرة للعرب. وفي السنة الثالثة لمعاوية كانت غزوة بسر بن أرطاة الروم دفعة ثانية وسبى بها وهزمت الروم حتى بلغت القسطنطينية، وفي سنة ٤٨ سير معاوية جيشا كثيفا إلى القسطنطينية مع سفيان بن عوف، وتوفي في مدة الحصار أبو أيوب الأنصاري ودفن بالقرب من سورها. وفي سنة ثلاث عشرة لمعاوية غزا بسر بن أرطاة الروم فقتل وأخرج معه سببا كثيرا. وفي السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في البحر وصاروا إلى لوقية فخرج إليهم ثلاثة بطارقة فقتل الروم من العرب ثلاثين ألفا ومن بقي منهم ركب البحر، فلما توسطوه لحقهم بعض الروم في سفينة فألقى النار في سفن فاحترقت كلها وفازت الروم وهم أول من أخرج النار وصارت لهم عادة. وفي السنة السابعة عشرة ركب الروم السفن وأقبلوا فيها في البحر حتى أتوا ساحل صور وصيدا ثم خرجوا من السفن واستولوا على جبل لبنان، وكان الناس يسمونهم الجراجمة وانتشروا من جبل الجليل إلى الجبل الأسود، وذلك أن قسطنطين دسهم ليشغلوا العرب عن الغزو.

ولم يكد معاوية يتولى الأمر بالشام حتى أخذ بما أوتيه من عقل وحلم يضع أساس الملك ويسير في رعيته سيرة حسنة حبيته إليهم، وكان يتأني الأمور ويداري الناس على منازلهم، ويرفق بهم على طبقاتهم، فأوسع الناس من أخلاقه، وأفاض عليهم من بره وعطائه، وشملهم من إحسانه، فاجتذب القلوب واستدعى النفوس، حتى آثروه على الأهل والقرايات وعدّ مربى دول وسائس أمم وداعي ممالك.

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس ولطالما أفضل على أشرف قريش مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان وناس من آل أبي طالب يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم، ومنهم عقيل بن أبي طالب شقيق علي بن أبي طالب قدم على معاوية بالشام فأمر له معاوية بثلاثمائة ألف دينار وقال له: هذه مائة ألف تقضي بها ديونك ومائة ألف تصل بها رحمك ومائة ألف توسع بها على نفسك. وكان عقيل قدم من قبل على أخيه في الكوفة فشكا له الضائقة فوعده بأن يعطيه عطاءه إذا خرج فقال عقيل: وإنما شخوصي من الحجاز إليك من أجل عطائك وماذا يبلغ مني عطاؤك وما يدفع من حاجتي؟ وكان معاوية مدة حكمه في الشام أميرا نحو عشرين سنة، وخليفة مثلها يعمد إلى المال فينفقه إذا رأى هناك مصلحة، وما ينحسم بالمال وحسن التدبير لا يحله بإهراق الدماء إلا بعد الاضطرار الشديد.

مقتل عثمان بن عفان

وبينا كان معاوية في الشام مستقلا بعض الاستقلال بعيدا عن كل شغب أخذ الناس ينقمون في الحجاز وغيره على عثمان لست سنين من خلافته وتكلم فيه من تكلم. فاجتمع ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة رسول الله وسنة صاحبيه، وما كان من هبته خمس إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة دارا لثلاثة ودارا لعائشة وغيرهما من أهله وبناته، وبنيان مروان القصور بذئ خشب وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا

تجربة لهم بالأمور. هذه خلاصة دعواهم عليه وقد دفع عن نفسه كل ذلك فما اقتنعوا ولا كفوا عن النيل منه.

وما زال عثمان على شيخوخته مغلوبا لمروان وبني أمية وأهم ما عدوا عليه توسيده الأمور لهم، حتى قتل في المدينة وتولى الخلافة علي بن أبي طالب. وكان معاوية على مثل اليقين من أن عليا لا يقره على الشام فكان كما ظن، وهنا ظهر نبوغ معاوية السياسي حتى بلغ ما أراد وقسم الأمة شطرين له وعليه وكانت كفته الراجحة. ولما بعث علي عماله على الأمصار كان من جملة من بعث سهل بن حنيف إلى الشام، فأما سهل فإنه لما انتهى إلى تبوك - وهي تخوم أرض الشام - استقبلته خيول لمعاوية فردوه فانصرف إلى علي فعلم علي عند ذلك أن معاوية قد خالف وأن أهل الشام بايعوه. واختلفت الآراء في تبعة معاوية من مقتل عثمان فقال فريق: إن عثمان كتب إلى معاوية: إن أهل المدينة قد كفروا وخلعوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول. فترىص به معاوية وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله وقد علم اجتماعهم فأبطأ أمره على عثمان حتى قتل فيما قيل.

آمال علي بن أبي طالب في الخلافة

ولم يتخلف معاوية عن مبايعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقط، بل قام يطالب بدم عثمان ويتهم عليا بقتله لأن عليا كان يحتج على الصحابة منذ يوم البيعة لأبي بكر ويقول: أنا أجدر بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح: يا بن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالا واضطلاعا فسلم لأبي بكر، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر

خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك. وقد وقعت لعلي تأوهات في المطالبة بالخلافة وأنه بُغي عليه في ذلك وغمط حقه في عهد الثلاثة الخلفاء، ولذلك كان في تساهله بالدفاع عن عثمان وجه عند بعضهم على حين ثبت أن علياً قرع عثمان على التفريط وأنذره بأن عاقبته تكون القتل بقوله: أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة.

وذكر ابن حزم أن امتناع معاوية من بيعة عليّ كما امتناع علي من بيعة أبي بكر،

فما حارب أبو بكر ولا أكرهه وأبو بكر أقدر على عليّ من عليّ على معاوية، ومعاوية في تأخره عن بيعة عليّ أعذر وأفسح مغاراً من عليّ في تأخره عن بيعة أبي بكر، لأن علياً لم يمتنع من بيعة أبي بكر أحد من المسلمين غيره بعد أن بايعه الأنصار والزبير، وأما بيعة عليّ فإن جمهور الصحابة تأخروا عنها إما عليه وإما لا له ولا عليه، وما تابعهم فيه إلا الأقل سوى أزيد من مائة ألف مسلم بالشام والعراق ومصر والحجاز كلهم امتنع من بيعته، فهل معاوية إلا كواحد من هؤلاء في ذلك؟ إلى أن قال بشأن البيعة: فصح أن علياً هو صاحب الحق الإمام المفترضة طاعته ومعاوية مخطئ مأجور مجتهد قال: ولم يقاتل عليّ معاوية لامتناعه من بيعته لأنه كان يسعه في ذلك ما وسع ابن عمر وغيره ولكن قاتله لامتناعه من إنفاذ أوامره في جميع أرض الشام وهو الإمام الواجبة طاعته، فعليّ المصيب في هذا ولم ينكر معاوية قط فضل عليّ واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أداه إلى رأي تقديم أخذ القوّد من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه عن ولد عثمان وولد الحكم بن أبي العاص لسنه ولقوته على الطلب بذلك.

اتفاق معاوية وعمرو بن العاص على المطالبة بدم عثمان

اغتنم معاوية هذه الفرصة السانحة في مقتل عثمان ليعيد الأمر إلى بني أمية ويصبحوا أمراء في الإسلام كما كانوا أمراء في الجاهلية. وكان النعمان بن بشير أتاه إلى دمشق من المدينة بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضبا بدمه وبأصابع نائلة زوجته فوضع القميص على منبر دمشق، وكتب بالخبر إلى الأجناد، وثاب إليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلقة في أردانه، وتعاهد الرجال من أهل الشام على قتل قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تبنى أرواحهم، وكان ستون ألف شيخ سيكون تحت قميص عثمان. وكان عمرو بن العاص لما نشب الناس في أمر عثمان في ضيعة له بالسبع من حيز فلسطين قد اعتزل الفتنة، فاستدعاه معاوية يسترشد برأيه ووعده بملك مصر إن هو ظفر بعلي. فارتأى عمرو أن يجلب معاوية شرحبيل بن السمط الكندي رأس أهل الشام، فسار هذا يستقري مدنها مدينة يحرض الناس على الأخذ بدم عثمان، فأجابه الناس كلهم إلا نفرا من أهل حمص نساكا فإنهم قالوا: نلزم بيوتنا ومساجدنا وأنتم أعلم منا.

وذكر المؤرخون أن معاوية قدم بيت المقدس وقدم عليه عمرو بن العاص فبايعه على دم عثمان وكتبا كتابا بينهما كانت صورته: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما تعاهد عليه معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ببيت المقدس بعد قتل عثمان وحمل كل واحد منهما صاحبه الأمانة أن بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في أمر الله والإسلام، ولا يخذل أحدا صاحبه بشيء ولا يتخذ من دونه وليجة ولا يحول بيننا ولد ولا والد أبدا ما حيننا فيما استطعنا.

وهكذا أخذ معاوية يحرك النفوس ويطالب بثأر عثمان ومما كتب به إلى علي: ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان. فأجابه علي: زعمت أنه إنما أفسد عليك بيعتي خطيئي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى، وما أمرت فيلزميني خطيئته عثمان، ولا قتلت فيلزميني قصاص القتال، وأما قولك: تدفع إليك قتلة عثمان، فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجل من بني أمية وبنو عثمان أولى بعثمان منك.

حرب صفين:

وما برحت الحزازات تشتد بين علي ومعاوية يريد الأول أن يبايع له الثاني، ويطالب الثاني بدم عثمان وهو مستقل بالشام، حتى التقيا سنة ٣٧ في صفين من أرض الشام بجيشيهما وكانت بينهما وقائع سالت فيها الدماء كالأنهار، فقتل من أهل الشام جيش معاوية خمسة وأربعون ألفا، ومن أهل العراق والحجاز جيش علي خمسة وعشرون ألفا، وكان معاوية في مائة وعشرين ألفا، وعلي في تسعين ألفا، وجسر علي الجنود حتى قُتل من أبطال الإسلام في تلك المعارك ألوف ولم يكثرث بقتلهم وإن عليا لينغمس في القوم فيضرب بسيفه حتى ينثني ثم يخرج متخضبا بالدم حتى يسوى له سيفه ثم يرجع فينغمس فيهم. ويقول الدينوري: كان أهل الشام أيام صفين إذا انصرفوا من الحرب يدخل كل فريق منهم في الفريق الآخر فلا يعرض أحد لصاحبه، وكانوا يطلبون قتلاهم فيخرجونهم من المعركة ويدفنونهم. وروى ابن سعد قال: اقتتل الناس بصفين قتالا شديدا لم يكن في هذه الأمة مثله قط حتى كره أهل الشام وأهل العراق القتال وملوه من طول تباهم السيف. فقال عمرو بن العاص وهو يومئذ على القتال

لمعاوية: أنت مطيعي فتأمر رجلا بنشر المصاحف، ثم يقولون: يا أهل العراق ندعوكم إلى القرآن وإلى ما في فاتحته إلى خاتمته، فإنك إن تفعل ذلك يختلف أهل العراق ولا يزيد ذلك أمر أهل الشام إلا استجماعا، فأطاعه معاوية ففعل، وأمر عمرو رجلا من أهل الشام فقرأ المصحف ثم نادى: يا أهل العراق ندعوكم إلى القرآن، فاختلف أهل العراق فقالت طائفة: أولسنا على كتاب الله وبيعتنا؟ وقال آخرون كرهوا القتال: أجبنا إلى كتاب الله، فلما رأى علي عليه السلام وهنهم وكرهتهم للقتال قارب معاوية فيما يدعوه إليه واختلف بينهم الرسل فقال علي عليه السلام: قد قبلنا كتاب الله فمن يحكم بكتاب الله بيننا وبينك؟ قال: تأخذ رجلا منا نختاره ونأخذ منكم رجلا تختاره، فاختار معاوية عمرو بن العاص، واختار علي أبا موسى الأشعري. وجرت المهادنة بين علي ومعاوية على وضع الحرب بينهما ويكون لعلي العراق، ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو، فأقام معاوية بالشام يجيئها وكان ذلك سنة ٤٠.

كانت حرب صفين من أشأم الحروب على الأمة، وهي في أول شبابها، التقى فيها المسلم بالمسلم بالسلاح، واقتلا قتالا شديدا، وهلكت من الفريقين نفوس زكية، فيهم الصحابة والقراء والعلماء، ولو لم يشغل بال معاوية بمقتل عثمان ثم بمدافعة علي لكان تفرغ للقضاء على الدولة البيزنطية آخر الدهر. خصوصا وقد كان من أكبر همه أن يغادي الروم القتال ويرأوهم منذ استقل بإمارة الشام. يغزوهم برا وبحرا ويصيب منهم وقلما يصيبون منه، وربما توفق معاوية وآله لولا هذه الغائلة الأهلية إلى استصفاء معظم أقطار الأرض ونشر الدين واللغة فيها، واضطرت حوادث علي معاوية أن يهادن صاحب الروم ويرضيه بمال عظيم ريثما يتفرغ له. وقال عمرو بن العاص لمعاوية: كما بدأت الفتنة اكتب إلى

قصر الروم تعلمه أنك ترد عليه جميع من في يدك من أسارى الروم
وتسأله الموائمة والمصالحة تجده سريعا إلى ذلك راضيا بالعفو منك.

صلح الحسن مع معاوية

ومن أهم الأحداث في زمن معاوية قيام الحسن بن علي في العراق
عقيب مقتل أبيه علي بن أبي طالب، فسار معاوية إلى الموصل والتقى
العسكران، فوجه معاوية إلى قيس بن سعد أمير جيش الحسن يبذل له
ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف فأبى، ويقال: إنه أرسل إلى
عبد الله بن عباس وبذل له مثل هذا المال فصار إليه في ثمانية آلاف من
أصحابه وهم من شيعة الحسن، وأقام قيس على محاربتة حتى اضطر
الحسن إلى صلح معاوية بعد أن رأى أصحابه تفرقوا عنه وصعد المنبر
فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم
بآخرنا وقد سالمت معاوية وإن أدري لعله فتنة لكم ومثاع إلى حين.

يقول الدينوري: لما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل إلى عبد
الله بن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلم له الخلافة،
وكانت الشرائط ألا يأخذ أحدا من أهل العراق بإحثة وأن يؤمن الأسود
والأحمر ويحتمل ما يكون من هفواتهم، ويجعل له خراج الأهواز مسلما
في كل عام، ويحمل إلى أخيه الحسين بن علي في كل عام ألفي ألف
درهم، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلوات على بني عبد شمس،
فكتب عبد الله بن عامر بذلك إلى معاوية فكتب معاوية جميع ذلك بخطه
وختمه بخاتمه وبذل له العهود المركبة والأيمان المغلظة وأشهد على
ذلك جميع رؤساء أهل الشام، ووجه إلى عبد الله بن عامر فأوصله إلى
الحسن رض فرضي به وكتب إلى قيس بن سعد بالصلح ويأمره بتسليم
الأمر إلى معاوية والانصراف إلى أعدائه، فلما وصل الكتاب بذلك إلى

قيس بن سعد قام في الناس فقال: أيها الناس اختاروا أحد أمرين: القتال بلا إمام أو الدخول في طاعة معاوية فاختاروا الدخول في طاعة معاوية. فسار حتى وافى المدائن وسار الحسن بالناس في المدائن حتى وافى الكوفة ووافاه معاوية بها فالتقيا فوكد عليه الحسن رض تلك الشروط والأيمان. اه قال الأحنف بن قيس وقد أتاه كتاب الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما يستنصره: قد بلونا الحسن وآل الحسن فلم نجد عندهم إيالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة الحرب. ولم يجبه إلى ما طلبه إليه.

ولما مات الحسن بعد شهرين وقيل أربعة أشهر من استيلائه على العراق صفا الجو لمعاوية وبايع له الناس فملك العراق والحجاز ومصر، وأجمعت القلوب على مبايعته طوعا أو كرها. وكان ممن مالا معاوية على تحقيق رغائبه عمرو بن

العاص عامله على مصر، والمغيرة بن شعبة عامله على الكوفة.

خِلافة يَزِيدَ وَرَأْيِ ابْنِ خَلْدُونَ

أوعز معاوية سرا إلى ولاة الأمصار أن يوفدوا الوفود إليه يزينون له إعطاء العهد لابنه يزيد، حتى استوثق له أكثر الناس وبايعوه والسيوف مسلولة فيما قيل على رقاب الصحابة في مسجد الرسول. وبذلك أخرج معاوية الخلافة عن أصولها، وكانت بالعهد لأفضل الصحابة أو بالشورى بينهم لمن يقع اختيارهم عليه، وجعلها كالملك يورثها الأب ابنه أو من يراه أهلا لها من خاصته، أو كسروية أو قيصرية على سنة كسرى وقيصر كما قالوا. وبذلك نقم على معاوية بعض الصحابة والتابعين من الأنصار والمهاجرين.

والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه - كما قال ابن خلدون - إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فأثره بذلك دون غيره مما يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحته مانعة من سوى ذلك، وحضور الأكابر لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذ العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه، وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه، ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير. وندور المخالف معروف.

ثم قال: إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق

ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس، وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم، ولا يعاب عليهم إيثارهم أبناءهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك. وكان الوازع دينيا فعند كل أحد وازع من نفسه، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره. ووكلوا كل من يسمو ذلك إلى وازعه، وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من

الملك؛ والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني، فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعا وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف.

ومن جملة وصايا معاوية لابنه يزيد في أهل الشام: انظر أهل الشام فليكونوا بطانتك ورعيتك، فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم. ولما قدم مشيخة أهل الكوفة على معاوية كان فيما سألهم عنه رأيهم في أهل الأحداث من الأمصار فقال أحدهم: وأما أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم.

غزوات معاوية وأعماله ووصيته

ومما يجب أن يذكر لمعاوية أنه مع اشتغال ذهنه بالملك لم يغفل قط عن إنشاء أسطول عظيم غزا به الروم وغزا القسطنطينية غير مرة وأغزى الروم مرارا، وكان يغزو الصوائف والشواتي أي غزوات الصيف والشتاء، وخص قوما من رجاله بتولي هذه الغزوات وبلغه أن الروم سنة ٤١ قد زحفت في جموع كثيرة فخاف أن يشغلوه عما يحتاج إلى تدبيره وإحكامه خصوصا بعد خروجه من وقعة صفين فوجه إليهم فصالحهم على مائة ألف دينار. وكان معاوية أول من صالح الروم، فلما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف فسبوا في الروم سنة بعد سنة، وطلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه، ورضي مرة بصلح ملك الروم على أن يكون عنده من أهل بيت ملكهم رهائن.

وحدث سنة ٣٤ أن معاوية كان يستعد لقصد القسطنطينية ويعد السفن الكثيرة بمدينة طرابلس ويحمل من السلاح أمرا عظيما أن أخوين لرجل يقال له بقنطر، وكانا في خدمة العرب، فلما نظر ما أعده معاوية أخذتهما

الغيرة فأتيا السجن ففتحاه وأخرجوا من فيه من الروم وقتلوا عامل البلد وأحرقوا السفن والعدة وركبوا البحر. فلما بلغ معاوية ذلك جهز جيوشا كثيرة إلى الروم فافتتح أرضا كثيرة. وسبي من أهلها مائة ألف إنسان وبعث أخاه على البحر فانهزم الروم بحرا أيضا، ثم تعددت وقائعه مع الروم. ومن وقائعه وقعة سنة ٣١. ولولا النار التي اخترعها الروم لإحراق السفن، وبها حرقت سفن كثيرة للعرب وهلك ألوف من رجال بحريتهم، لامتدت الفتوحات ولسهل على معاوية فتح القسطنطينية كما سهل عليه غزو الروم لتحصينه سواحل الشام وإقامته الصناعة في صور وعكا وغيرها من مدن الشام.

توفي معاوية سنة ٦٠ بعد أن وطأ أكناف الملك وابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه أحد إليها، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ورفع الحراب بين أيديهم، ووضع المقصورة التي يصلي الملك أو الخليفة بها في الجامع منفردا عن الناس، وهو أول من وضع البريد، واخترع ديوان الخاتم واستخدم النصارى في مصالح الدولة، فعهد بنظارة المالية إلى منصور وسرجون من نصارى العرب الشاميين. أوصى معاوية بني أمية فقال إنه لما قرب مني ما كان بعيدا، وخفت إن يسبق الموت إليّ ويسبقكم بي سبقته إليكم بالموعظة لأبلغ عذرا، وإن لم أردّ قدرا، إن الذي أخلفه لكم من دنياي أمر تشاركون فيه أو تقبلون عليه، وإن الذي أخلف لكم من رأيي مقصور عليكم نفعه إن فعلتموه، مخوف عليكم ضرره إن ضيعتموه، فاجعلوا مكافأتي، قبول نصيحتي، وإن قرىشا شاركتكم في أنسابكم، وتفردتم دونها بأفعالكم، فقدمكم ما تقدمتم فيه إذا أحر غيركم ما تأخروا له، ولقد جهر لي فعلتم، وفهم لي ففهمت، حتى كأني أنظر إلى أولادكم بعدكم كنظري إلى آبائهم قبلهم، إن دولتكم ستطول، وكل طويل مملول، وكل مملول مخذول، فإذا انقضت مدتكم

كان أول ذلك اختلافكم بينكم، واتفاق المختلفين عليكم، فيدبر الأمر بضد ما أقبل به، فلست أذكر عظيماً يُنال منكم، ولا حرمة تُنتهك لكم، إلا وما أُنْف عن ذكره أعظم منه، فلا معوّل عليه عند تلك أفضل من الصبر، واحتساب الأجر، فيا لها دولةً أنست أهلها الدول في الدنيا والعقوبة في الآخرة، فيما ذكّم القوم دولتكم تَماد العنانين في عنق الجواد، فإذا بلغ الأمر مداه، وجاء الوقت الذي حده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضعفت الحيلة، وعزب الرأي، وصارت الأمور إلى مصايرها، فأوصيكم عندها بتقوى الله عز وجل الذي يجعل لكم العاقبة إن كنتم متقين.

خلافة يزيد ومقتل الحسين ووقعة الحرة

تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه ثلاث سنين وستة أشهر، وسار على خطته في جهاد الروم وكان جلداً صبوراً، ولم تمنعه فتن ابن الزبير وشيعة العراق عن قتالهم، وأهم الأحداث في زمانه قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء من العراق، وحمل رأسه الشريف إلى الشام، وإهانة أسرته الطاهرة، وقتل بعض رجالها. فارتكب ابن زياد عامل العراق ليزيد من ذلك أمراً نكراً أكبره أهل الإسلام وزادت بذلك شيعة علي وآله حنقا وشدّة. ولم يكن يزيد يريد قتل الحسين عملاً بوصية والده له، فإن زحر بن قيس لما حمل من العراق إلى الشام أهل بيت الحسين ودخل على يزيد وبشره بذلك دمعت عينه وقال: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية يعني ابن زياد، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين. ومن الأحداث في أيام يزيد تسييره بالجيش إلى نواحي حماة وتصدي أهل لبنان له وهزيمته. وغزا الروم في ولايته للعهد ثم غزاهم في خلافته وعد ذلك من مزاياه ومزايا أبيه.

واتفق أهل المدينة سنة ٦٢ على خلع يزيد فأخرجوا عماله وآله فجهز جيشا مع مسلم بن عقبة وأمره بقتال أهل المدينة فإذا ظفر بها بأباحتها للجنود ثلاثة أيام، وأن يبايعهم على أنهم خول وعبيد ليزيد. فقاتل جنود الشام أهل المدينة في الحرّة واستباح مسلم المدينة، وكان قتلى الحرّة سبعمائة من وجوه الناس من قريش والمهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من وجوه الموالي، ثم بايع من بقي من الناس.

حنقت نفوس الأمة من وقعة الحرّة لأن فتنتها التهمت بضع مئات من عليّة قريش، وكانت غلطة زياد في قتل الحسين وسبي آلّه الطاهرين ذريّة أكبر للنيل من يزيد وآل يزيد، فتقولوا عليه وحطوا من كرامته، مع أنه سار بسيرة أبيه في الملك من التوسع في الفتوح وقاتل أعداء المملكة من الروم. أما وقعة الحرّة فإن أهل المدينة استظالوا على يزيد وحاسنهم فحاشنوه وأخرجوه حتى أخرجوه.

عهد معاوية الصغير

توفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤ وبويع ابنه معاوية بن يزيد ثالث خلفاء بني أمية، ولما استخلف لبث شهرين وليالي محجوبا لا يرى، ثم خرج بعد ذلك فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني نظرت فيما صار إليّ من أمركم، وقلدته من إمارتكم، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي أن أتقدم على قوم وفيهم من هو خير مني، وأحقهم بذلك وأقوى على ما قلدته، فاختراروا مني إحدى خصلتين: إما أن أخرج منها وأستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعا، ولكم الله عليّ لا ألوكم نصحا في الدين والدنيا، وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها، فأنف الناس من قوله، وأبوا من ذلك وخافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم وماج أمرهم واختلفوا.

وقيل: إنه خطب الناس وقال: ما كنت أتقلدكم حيا وميتا فوالله لئن كانت الدنيا مغنما فقد نلنا منها حظا، وإن تكن شرا فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها. فقال له مروان بن الحكم: سنها فينا سيرة عمرية قال: ما كنت أتقلدكم حيا وميتا. ولما حضرته الوفاة بعد خلافته بأربعة أشهر وقيل أقل من ذلك، وله عشرون سنة وقيل إحدى وعشرون سنة، لم يرض أن يعهد بالأمر من بعده. وقال: أتفوز بنو أمية بحلاوتها، وأبوء بوزرها وأمنعها أهلها، كلا إني لبريء منها. قال المسعودي: إنه أراد أن يجعلها إلى نفر من أهل الشورى ينصبون من يرونها أهلا لها. وقيل: إن معاوية بن يزيد كان قدريا، لأن عمر المقصوص كان علمه ذلك، فدان به وتحققه، فلما بايعه الناس قال للمقصوص: ما ترى؟ قال: إما أن تعتدل أو تعتزل. فخطب الناس يستعفي من بيعتهم، فوثب بنو أمية على عمر المقصوص وقالوا: أنت أفسدته وعلمته فطمروه ودفنوه حيا. ويقول الطبري: وكان معاوية بن يزيد بن معاوية فيما بلغني أمر بعد ولايته فنودي الصلاة جامعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتهم. ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس وتغيب حتى مات. فقال بعض الناس: دس إليه فسقي سما وقال بعضهم: طعن.

قيام ابن الزبير وخلافة مروان بن الحكم ورقعة مرج راهط

وكان عبد الله بن الزبير قد تغلب على مكة وتسمى بأمر المؤمنين ومال إليه أكثر النواحي. ابتداء أمره في أيام يزيد بن معاوية فلما توفي يزيد مال الناس إلى ابن الزبير. وكان بفلسطين ناتل بن قيس الجذامي،

وبدمشق الضحاك بن قيس الفهري، وبحمص النعمان بن بشير الأنصاري، وبقنسرين والعواصم زفر بن الحارث الكلابي، وثب على سعيد بن بدل الكلابي وأخرجه منها، ولم تبق ناحية إلا مالت إلى ابن الزبير خلا الأردن ورئيسها يومئذ حسان بن بحدل الكلابي بمعنى أن الناس افرقوا ثلاثا: فرقة بحدلية وهو اسم لبني حرب، وفرقة زبيرية، وفرقة لا يباليون لمن كان الأمر.

وقدم مروان بن الحكم، وأمر الشام مضطرب ومعظم أجنادها مبايعة لابن الزبير، فدعا مروان إلى نفسه وهو من أعظم رجال أمية عقلا ودهاء وسياسة وحنكة. واجتمع الناس بالجابية من أرض حوران فتناظروا في ابن الزبير وفيما تقدم من بني أمية عندهم، وتناظروا في خالد بن يزيد بن معاوية، وفي عمرو بن سعيد بن العاص بعده، فكان روح بن زنباع الجذامي يميل مع مروان فقام خطيبا فقال: يا أهل الشام هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، والمطالب بدم عثمان، والمقاتل لعلي بن أبي طالب يوم الجمل ويوم صفين، فبايعوا الكبير واستنبيوا للصغير. فلما عقدوا البيعة جمعوا من كان في ناحيتهم، ثم تناظروا في أي بلد يقصدون فقال: نقصد دمشق فإنها دار الملك ومنزل الخلفاء، وقد تغلب بها الضحاك بن قيس فلقوا الضحاك بمرج راهط، وكان مع الضحاك من أهل دمشق وفتيتهم جماعة، وقد أمده النعمان بن بشير عامل حمص بشرحيل بن ذي الكلاع في أهل حمص، وأمده زفر بن الحارث الكلابي بقيس بن طريف بجيش من شمالي الشام، فكان في ثلاثين ألفا، ومروان في ثلاثة عشر ألفا أكثرهم رجالة، والتقوا بمرج راهط فاقتلوا قتالا شديدا ودام القتال عشرين يوما فقتل الضحاك بن قيس وخلق من

أصحابه، وهرب من بقي من جيشه. وبلغ الخبر النعمان بن بشير وهو بحمص فخرج هاربا، فتبعه قوم من حمير وباهلة، وقيل من أهل حمص

فقتلوه في البرية، وكان من أخطب أهل الدنيا، وهرب زفر بن الحارث الكلابي والخيل تبعه حتى أتى قرقيسيا على الخابور.

وأقام مروان بن الحكم بالشام في أيام ابن الزبير واجتمعت إليه بنو أمية بعد وقعة مرج راهط التي انقسمت بها الشام فرقتين قيسية ويمانية، وغلب اليمانية وكان بنو أمية يبغضون اليمانية. قال المسعودي: وكانت هذه الوقعة سبب رد ملك بني أمية، وقد كان زال عنهم إلى بني أسد بن عبد العزى، ولذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف. وهذه الوقعة من الوقائع المشهورة التي تفتخر بها اليمانية على النزارية، وقد أكثر شعراؤها الافتخار بذلك. ولما بويع لمروان بن الحكم اشترط حسان بن مالك، وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام، على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد، منها أن يفرض لهم لألفي رجل، ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة، فرضي مروان بذلك وانقاد إليه. وكان هذا أول قانون عربي وضع للتشريفات بروتوكول وضع أساسه القحطانية، وكانوا اصطالحوا على ذلك منذ عهد معاوية، أرضاهم بهذا التصدر فدخل مصطلحهم في طور الدساتير المعمول بها.

ولم يلبث مروان أن وجه جيشا إلى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ثم خرج يريد مصر، فلما سار إلى فلسطين وجد نائل بن قيس متغلبا على البلد فحاربه، فهرب ولحق بابن الزبير، وسار مروان إلى مصر فصالحه أهلها. وأرسل عبيد الله بن زياد إلى العراق لقتال الشيعة، ولما صار مروان إلى الصَّيْبَرَة من أرض الأردن منصرفا من مصر بلغه أن حسان بن بحدل قد بايع عمرو بن سعيد بن العاص، فأحضره فأنكر وبايع لعبد الملك، ثم بعده لعبد العزيز بن مروان، وكانت ولاية مروان تسعة أشهر وقيل ثمانية

وقيل ستة. وبإيع أهل الشام بعده لابنه عبد الملك وكان مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف كرها، على ما قيل بغير رضا من عصابة من الناس، بل كل خوفه إلا عدد يسير حملوه على وثوبه عليها، وقد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد وأعوان. لا جرم أن مروان سيد بني عبد مناف في عصره كان من الرجال العظام وكان مولعا بالشورى في إمارته المدينة وكان يجمع في ولايته عليها أصحاب رسول الله يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه، ومثل هذا الرجل بطول تجربته وحنكته وأخذه بالآراء السديدة ينجح ولا شك في عمله، فهو مفخرة من مفاخر الأمويين وبنو أمية مدينة بالخلافة له.

خِلافة عبد الملك بن مروان

كان عبد الملك بن مروان بعد مهلك أبيه بعيدا عن دمشق فأقبل مسرعا خوفا من وثوب عمرو بن سعيد، وكان عمرو بن سعيد من أحب الناس إلى أهل الشام يسمعون له ويطيعون. واجتمع الناس على عبد الملك فقال لهم: إني أخاف أن يكون في أنفسكم مني شيء فقام جماعة من شيعة مروان فقالوا: والله لتقومنَّ إلى المنبر أو لنضربن عنقك، فصعد المنبر وبإيعوه.

وتفرغ عبد الملك لاستصفاء العراق من شيعة علي فاستخلصها منهم بعد أن قتل من الطرفين جمهور كبير، وقتل أشراف أهل الشام وكان جيشهم ثلاثين ألفا. وذكر اليعقوبي -وأكد روايته غير واحد من المؤرخين- أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة ووجه وجوه الناس إلى مسجد بيت المقدس فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة وأخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة. قلنا: وكذلك فعل

بنو أمية في الأندلس في الغرب، فإنهم منعوا الناس عن الحج مدة ملكهم أوائل عهد بني العباس مخافة أن يأخذهم العباسيون بالبيعة لهم.

ومن الأحداث في أيام عبد الملك تجهيز يوحنا أمير جبل لبنان اثني عشر ألف فارس وذهابه إلى البقاع ونزوله في قب إلباس، وغزوة الجبل الشرقي وشنه الغارات على الحجاج حتى ضاقت به الرعية وقطعت الطرق وخربت المسالك. وكان أمير لبنان مرتبطا مع صاحب الروم بعهود فسار قائد جيوشهم لاون سنة ٦٥ وضم إليه عساكر الجبل. وغزا أرض العرب واسترد منهم ما كانوا أخذوه، فاضطر عبد الملك بن مروان إلى تجديد الهدنة مع ملك الروم على أن يدفع له كل يوم ألف دينار وفرسا ومملوكا ويقاسمه على خراج قبرس وأرمينية على شرط أن يخرج اللبنانيين من جبلهم، فأجابه ملك الروم إلى ذلك.

الجراجمة والمردة في جبل لبنان

ويؤخذ مما قاله ابن عساكر أن طاغية الروم لما رأى ما صنع الله للمسلمين من منعه مدائن الساحل، كاتب أنباط جبل لبنان واللكام فخرج الجراجمة وعسكروا بالجبل، ووجه ملك الروم قلقط البطريق في جماعة من الروم في البحر فسار بهم حتى أرسى بهم بوجه الحجر وخرج بمن معه حتى علا بهم على جبل لبنان، وبث قواده في أقصى الجبل حتى بلغ إنطاكية وغيرها من الجبل الأسود، فأعظم ذلك المسلمون بالساحل حتى لم يكن أحد يخرج في ناحية من رجال ولا غيرها إلا بالسلاح، فغلبت الجراجمة على الجبال كلها من لبنان وسنير وجبل الثلج وجبال الجولان، فكانت بالسبل مسلحة لنا، وفي الرقاد وعقربا الجولان مسلحة، حتى جعلوا ينادون عبد الملك بن مروان من جبل دير مران من الليل، وبعث إليهم عبد الملك بالأموال ليكفوا حتى يفرغ إليهم، وكان مشغولا بقتال

أهل العراق ومصعب بن الزبير وغيره. قال: ثم كتب عبد الملك إلى سحيم بن المهاجر في مدينة

طرابلس وكان أميرها يتواعده ويأمره بالخروج إليهم، فلم يزل سحيم ينتظر الفرصة منهم ويسأل عن أخبارهم وأمورهم حتى بلغه أن قَلَقَط في جماعة من أصحابه، وتهاياً بهيئة الروم في لباسه وهيئته وشعره وسلاحه، متشبهاً ببطريق من بطارقة الروم قد بعثه ملك الروم إلى جبل اللكام في جماعة من الروم فغلب على ما هنالك، فلما دنا من القرية خَلَف أصحابه فقال: انتظروني إلى مطلع كوكب الصبح فدخل على قَلَقَط وأصحابه وهم في كنيسة يأكلون ويشربون، فمضى إلى مقدم الكنيسة فصنع ما يصنعه النصراني من الصلاة والقول عند دخولهم كنائسها، ثم جلس إلى قَلَقَط فقال له: من أنت فانتصي إلى الرجل الذي يشبهه به فصدقه، وقال له: إنما جئتك لما بلغني عن جهاد سحيم وما اجتمع عنده من العساكر للخروج إليك، فأتيت لأخبرك به وأكفيك أمره، إياك أن تتناول من طعامهم. ثم قال لقلقط وأصحابه: إنكم لم تأتوا هنا للطعام والشراب، ثم قال لقلقط: ابعث معي عشرة من هؤلاء من أهل النجدة والبأس حتى نحرسك الليلة، فإني كئيب أن تأتنيك بلية، فبعث معه عشرة وأمرهم بطاعته، فخرج بهم إلى أقصى القرية وقام بهم على الطريق الذي يتخوفون أن يُدخِل عليهم منه، فأقام حارساً منهم وأمر أصحابه فناموا، فأمر الحارس إذا هو أراد النوم أن يوقظ حارساً منهم وينام هو، فحرس الأول ثم أقام الثاني ثم قام سحيم ثم قال: أنا أحرس فتم فلما ثقل نومهم قتلهم بذبابة سيفه رجلاً بعد رجلاً، فاضطرب التاسع، فأصاب العاشر برجله، فوثب إلى سحيم فأخذه وصرعه الرومي وجلس على صدره وأخرج سحيم سكيناً ومقلها في نحره فقتله، ثم أتى الكنيسة فقتل قَلَقَط وأصحابه رجلاً بعد رجلاً، ثم خرج إلى أصحابه العشرين فجاء بهم وأراهم قتله وقتل الحرس وقلقط ومن في

الكنيسة ووضعوا سيوفهم فيمن بقي فنذر بهم من بقي منهم، وخرجوا هرابا حتى أتوا سفنهم بوجه الحجر فركبوها، ولحقوا بأرض الروم ورجع أنباط جبل لبنان إلى

قراهم.

ورواية البلاذري في هذه الواقعة هكذا: وأقبل طاغية الروم يريد الشام وخرج أيضا قائد قواد الضواحي في جبل اللكام فاتبعه خلق من الجراجمة والأنباط وأتاق عبيد المسلمين وغيرهم، ثم صار إلى لبنان فأقبل عبد الملك مغذا للسير حين أتاه كتاب ابن أم الحكم بذلك، فلما ورد دمشق وجه حميد بن خريث بن بحدل الكلبي بهدايا وألطف إلى طاغية الروم وكتب إليه معه يسأله الموادة على إتاوة وأعطاه إياها كما فعل معاوية حين أراد إتيان العراق فقبل الطاغية الهدايا وما بذل له عبد الملك من الإتاوة وأعطاه زُهْناء من أبناء الروم وصيرهم ببعلك، ووادع عبد الملك الذين خرجوا بلبنان وجعل لهم في كل جمعة ألف دينار فركنوا إلى ذلك ولم يعيشوا بفساد، ثم دس إليهم سُحيم بن المهاجر فتلطف حتى وصل إلى رئيسهم متنكرا فأظهر ممالأته وتقرَّب إليه بدم عبد الملك وشتمه ووعد أن يدلّه على عوراته وما هو خير له من الصلح الذي بذل له، ثم عطف عليه وهو وأصحابه غارون غافلون بجيش من موالي عبد الملك وبني أمية وجند من ثقات جنده وكماتهم كان أعدهم لمحاربتة وأكمنهم في مكان بالقرب منه خفي فقتل أولئك الروم وبشرا من الجراجمة وغيرهم ثم أذن بالأمان فيمن بقي من الجراجمة ومن سواهم فتفرقوا في قراهم ومواضعهم، فلما أصلح عبد الملك أموره استخلف ابنه الوليد على دمشق ومعه سعيد بن مالك بن بحدل. قال: وأمر عبد الملك فنادى من أتانا من العبيد يعني الذين كانوا مع أولئك القوم فهو حر وله أن أثبته في

الديوان، فانفض إليه خلق منهم كانوا ممن قاتل مع سحيم وقد وفى لهم وجعل لهم رُبعا على حدة فهم يسمون الفتيان إلى الآن.

ولما كانت سنة ٨٩ اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم وأتاهم قوم من الروم من قبل الإسكندرونة ومرسين، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة بن عبد الملك فأناخ

عليهم في خلق فأفتتحها، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام، ويجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وهو مدان من قمح، وقسطان من زيت، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينقلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين، فأخرب مدينتهم وأنزلهم فأسكنهم جبل الحُوار وسنح اللولون وعمق تيزين وصار بعضهم إلى حمص ونزل بعضهم بطريق الجرجومة في جماعة معه من إنطاكية ثم هرب إلى الروم. قال ياقوت: واستعان المسلمون بالجراجمة في مواطن كثيرة في أيام بني أمية وبني العباس وأجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة.

قتل ابن الزبير في مكة بعد أن كانت خلافته تسع سنين والفتنة بينه وبين عبد الملك سبع سنين، فبويع لعبد الملك بالحجاز واليمن وصفا له ملك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وغيرها. وفي سنة ٧٥ وصل موريق وموريقان من قواد الروم إلى الشام وحملا بجيوشهما على دير القديس مارون في جهات حماة وقتلا منه خمسمائة راهب وهدما بنيانه، ثم تحولا من هناك إلى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلين ونهبوا وخربا

المساكن ولم يعفيا أحدا من أتباع بطريك الموارنة، ثم انتهى جيشهما إلى طرابلس فخضع لهم أهل الكورة، ثم قوي الجيليون على عسكر الروم ثم قتلوا أكثرهم وانهزم الباقون. دعا الروم إلى قتال الموارنة لقتولهم بالطيبعتين والمشيتتين ثم وفد وفد منهم مع لاون القائد يبيح أن يحارب الجيش الموجه عليهم، فلما عرف الجيليون وأهل العواصم بهذا انهالوا على الأروام من أعالي الجبل فقاتلوهم حتى قتلوا أكثرهم وانهزم الباقون. قال الدويهي: وبسبب هذه

الحملة على يوحنا مارون ولا سيما بسبب الواقعة التي جرت بين أهل الكورة وجبة بشري كان بدء التفرقة بين الموارنة والملكية. لأن الذين اتبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سموا ملكية تبعا للملك، والذين ثبتوا في الأمانة تحت طاعة البطريرك يوحنا مارون سموا موارنة.

وقال ابن القلاعي: إن الموارنة في دخول المسلمين إلى الشام كانوا يسكنون جبل لبنان، ويتولون الجبال والسواحل التي تجاورهم، وبلادهم من حدود الشوف إلى بلاد الدريب، وأميرهم يسكن قرية بسكتنا نزل إلى البقاع في رجاله ونهبها وقتل كثيرين ولبث أياما في قب إلياس، فلما انتهى خبره إلى عبد الملك بن مروان أرسل إليه هدية ولم يزل يمكر به حتى قتله وقتل كثيرين من عسكره، وأحرق القرى وأبعد الموارنة من البقاع، ولم تزل الحروب منذ ذلك الحين نائرة بين المسلمين والموارنة إلى نحو ثلاثين سنة ثم ابنتى الموارنة حصنا فوق نهر الكلب جرت عنده موقعة هائلة.

عهد الوليد

توفي عبد الملك في سنة ٨٦ بعد أن ولي الخلافة منذ قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر، وكان من الحزم وسنة الصدر وجمال

العلم والأدب على جانب عظيم، ويعد من فقهاء المدينة وهو أول من حولت الدواوين في أيامه إلى العربية، وفي عهده نقشت الدنانير والدراهم بالعربية ٧٦ وكان قبل ذلك نقش الدنانير بالرومية ونقش الدراهم بالفارسية، وهو أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وكان الناس قبل ذلك يراجعون ويعترضون عليهم.

وبويح للوليد بن عبد الملك. وكانت أيامه من أبرك أيام بني أمية عمّر الجوامع العظام، وكتب إلى الأمصار بهدم المساجد والزيادة فيها، وبث في الأمة روح العمران، فكان الناس إذا التقوا في زمانه، يسأل بعضهم بعضا عن الأبنية والعمارات في كل مكان، وكان أول من عمل أعمالا جسيمة ابتدعها في الصدقات والقربات، هذا مع أن الخراج انكسر في أيامه فلم يحمل كثير شيء من العراق وغيره، فاضطر إلى إحصاء أهل الديوان، وألقى منهم بشرا كثيرا بلغت عدتهم عشرين ألفا، وأجرى الوليد على زماني أهل الشام كالمجذمين والعميان وكساهم وأمر لكل منهم بخادم، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة، وزاد الناس جميعا في العطاء عشرة عشرة، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف، وكان وهو ولس عهد، يطعم من وفد إليه من أهل الصائفة قافلا، ويطعم من صدر عن الحج بمنزل زيزاء في البلقاء ثلاثة أيام، ويعلف دوابهم، ولم يقل في شيء يسأله: لا. ف قيل له: إن في قولك: أنظر، عدة ما يقيم عليها الطالب فقال: لا أعود لساني شيئا لم أعتده وقال:

ضممت لكم إن لم تعقني عوائق	بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك إلحاق معا وزيادة	وأغطية مني عليكم تبرع
محزّمكم ديوانكم وعطاؤكم	به يكتب الكتاب شهرا وتطبع

وقد بلغ بنو أمية في عهد الوليد أقصى درجات عزمهم، واعتز بحكمه الإسلام والمسلمون، وفتحت الفتوح العظام وتغلغت جيوشه في أرض الترك والروم والهند، وفتحت الأندلس وجاء فاتحها موسى بن نصير إلى دمشق يضع بين يدي الخليفة الأموال والجواهر، ويعرض أبناء ملوك البربر والجزائر والروم والأسبان والإفرنج يلبسون تيجانهم، ويقف أبناء ملوك أوروبا في باب الخليفة الأموي بحالة الأسر. وبعث الوليد أخاه مسلمة لغزو الروم فقتل منهم أربعين ألف رجل، وغزا قلقية وفتح فيها حصونا كثيرة بالأمان، وحمل أهلها إلى الشام وفتح أمسية وحصونا كثيرة.

سليمان بن عبد الملك

توفي الوليد سنة ٩٦ فبويع أخوه سليمان بن عبد الملك سابعهم، وكان حسن السيرة فصيحاً مفوّهاً، أته بيعة الأجناد وهو باللقاء فأنى القدس وأته الوفود بالبيعة، فلم ير الناس وفادة أحسن منها، جلس في قبة صحن المسجد، وقد بسطت السط لديه والنمارق عليها والكراسي، فجلس وأذن للناس أن يجلسوا على الكراسي والوسائد، وإلى جانبه الأموال والكساوي وآنية الذهب والفضة والدواوين، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعمن قدموا من عنده ويقول: إن من جنودنا كذا ومن حاجتهم كذا وكذا ومما يصلحهم كذا، فيأمر سليمان بذلك كله.

ردّ المظالم وعزل عمال الحجاج، وأخرج من كان في سجن العراق، وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم، وكانت أيامه ذات فتوح متوالية، جاء الخبر إلى سليمان بن عبد الملك أن الروم خرجت على ساحل حمص، فسبت امرأة وجماعة، فغضب سليمان وقال: والله لأغزونهم غزوة أفتح بها القسطنطينية أو أموت دون ذلك، فأغزى جماعة أهل الشام والجزيرة والموصل في البر في نحو مائة وعشرين ألفاً، وأغزى

أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، وعلى جماعة الناس مسلمة بن عبد الملك، وأغزى داود بن سليمان في جماعة من أهل بيته، وقدم سليمان من القدس إلى دمشق، ومضى حتى نزل مرج دابق فأمضى البعث وأقام بالمرج. واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا وأوصى له سليمان بالخلافة، فسمي سليمان مفتاح الخير لاستخلافه عمر بن عبد العزيز.

عهد عمر بن عبد العزيز وسيرته

لما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أوائل سنة تسع وتسعين أبطل سب علي رضي الله عنه على المنابر، وكان من العادة سبه عقيب كل خطبة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي قدم الخطبة على صلاة الجمعة، لأن الناس كانوا يكرهون سماع اللعن، فكانوا إذا أدوا الصلاة خرجوا من المسجد. أراد معاوية من ذلك كما قال ابن أبي الحديد تشييد الملك وتأكيده ما فعله الأسلاف، وأن يقرر في أنفس الناس أن بني هاشم لا حظ لهم في هذا الأمر، وأن سيدهم الذي به يصلون، وبفخره يفخرون، هذا حاله وهذا مقداره، فيكون من ينتمي إليه ويدلي به عن الأمر أبعد، وعن الوصول إليه أشحظ وأنزح. على أن الطالبين كانوا يقتنون عقيب كل صلاة ويلعنون أيضا بني أمية.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى نوابه بإبطال السب وكانوا يقولون: لعن الله أبا تراب. ولما خطب يوم الجمعة، أبدل السب في الخطبة بقوله تعالى: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم}. وقيل: بل جعل مكان ذلك قوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون}. فاستمر الخطباء على

قراءتها إلى هذا اليوم، وشكر سعيه كل عاقل. وردّ عمر بن عبد العزيز المظالم، وسار سيرة عمر بن الخطاب جده لأمه، واستعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، واستدعى الجيش الإسلامي من حصار القسطنطينية ساعة ولي الخلافة حقنا لدماء المسلمين، وكان قد بلغ منهم الجهد، ولم يغفل مع ذلك عن غزو الروم عند الاقتضاء الشديد. ولو طال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لإحاطة الأعداء بهم، وردّ جيوش المسلمين من الشرق ومنعهم من التوغل فيه قاتلاً: يكفي ما فتح الله على المسلمين من الفتوح.

ويرجع الفضل في العهد لعمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن عبد الملك الذي عرف بحكمته أن ابن عبد العزيز أعدل رجل وأعقل رجل في بني أمية، فعهد إليه

بالخلافة فأحسن للأمة وأي إحسان، وحنق عليه بعض المتلاعبين من أهل بيته فسقوه السم فيما قيل فهلك سنة ١٠١، وخلافته سنتان وخمسة أشهر. وكانت سيرة عمر بن عبد العزيز مضرب الأمثال في القاصية والدانية، وقدوة السلف للخلف في كل عصر ومصر. قال عمرو بن ميمون: كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة.

بعث عمر بن عبد العزيز وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوهم إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه، وهو جالس على سرير ملكه والتاج على رأسه، والبطارقة عن يمينه وشماله، والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوا له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن جواب وانصرفوا عنه في ذلك اليوم، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج على رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدها عليها كأنه في مصيبة فقال:

هل تريدون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا قال: إن صاحب مسلحتي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا فقال: لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم. فإنه قد خرج إلى خير مما خلف. قد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا والآخرة لقد بلغني من بره وفضله وصدفته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنا وظاهرا فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه. ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعة، ولكنني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهدها فيها حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا.

يزيد بن عبد الملك وهشام والوليد بن يزيد

تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك تاسع الأمويين، وقد لقب الوليد وسليمان ويزيد وهشام أبناء عبد الملك بالأكبش الأربعة، ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء. فعزل يزيد عمال عمر بن عبد العزيز جميعا وأعاد سب علي على المنابر، ودام ذلك إلى انقضاء أمر بني مروان، يربو عليها الصغير ويهرم الكبير. ولم يكن يزيد بن عبد الملك بالخليفة الذي تحمد سيرته كثيرا، وتوفي بعد أن تولى الخلافة أربع سنين وشهرا وعهد بها إلى أخيه هشام وهو عاشرهم، وكان هشام يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة البرك والقني في طريق مكة وغير ذلك. وكان لا يدخل بيت ماله مال حتى يشهد أربعون قسامة لقد أخذ من حقه وأعطى لكل ذي حق حقه. وظهر في أيامه بخراسان سليمان بن كثير الخزاعي وأصحابه يدعون إلى بني هاشم سنة ١١١ فانتشرت دعوتهم وكثر من يجيبهم، وأرادوا خلع بني

أمية وبيعة بني هاشم، فقاتلهم وقاتل الخوارج على ملكه في أقطار أخرى، وكان قد بلغ ملك بني أمية فارس والسند وشمال إفريقيا والأندلس.

وغزا هشام - وهو من أحزم بني أمية - الروم مرات وأسر قسطنطين ملكهم وحارب الترك كما حاربهم من قبله من الخلفاء وتوفي سنة ١٢٥ فبويح بعده للوليد بن يزيد فاضطربت المملكة في عهده، لأنه كان مهملاً قليل العناية بأطرافه وقيل: إنه كان صاحب ملاءة وضم ذلك إلى ما ارتكبه من إغصاب أكابر أهله والإساءة إليهم وتنفيرهم فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته وهجموا عليه وقتلوه بعد سنة وخمسة أشهر من ولايته وكانت تتابعته منه فعال أنكروها الناس عليه فدب يزيد بن الوليد في الدعاء إلى خلعه فأجابته اليمن بأسرها وعاضدوه ووثبوا معه على عامل الوليد بدمشق فأجابوه وبأيعوا يزيد ثم ساروا إلى الوليد فقتلوه.

وكان اجتمع من بأقطار الشام من اليمانية فخرج إليهم الوليد بمضر واقتتلوا،

وأثخنت اليمانية القتل في مضر فانهزمت مضر وأخذوا نحو دمشق، ودخل الوليد قصره فتحصن فيه فبايعوا يزيد بن الوليد وبايعه أشرف المضريين طوعاً وكرهاً وخلعوا الوليد بن يزيد فلبث مخلوعاً أياماً كثيرة وهو خليع بني أمية ثم قتلوه.

وفي سنة ١٢٦ اضطرب أمر بني أمية وهاجت الفتنة، فكان من ذلك وثوب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد قتل الوليد بعمان، وكان قد حبسه الوليد بها، فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الأموال وأقبل إلى دمشق. وفي هذه السنة أمر الوليد بن يزيد على جيوش البحر، الأسود بن بلال المحاذي وسيره إلى قبرس لينخير أهلها بين المسير إلى الشام أو إلى الروم، فاخترت طائفة جوار المسلمين فسيرهم إلى الشام، واختار

آخرون الروم فسيرهم إليهم وأسكنهم الماحوز^(١) على ساحل البحر بين صور وصيدا.

يزيد بن الوليد

وكان من أمر يزيد بن الوليد وهو ثاني عشر خلفائهم أن نقص الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص، وكان الخليفة من بني أمية إذا مات وقام آخر زاد في أرزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون: غير بغير وزيادة عشرة.

اضطربت البلدان على يزيد ولما قتل خرج أهل حمص وأغلقوا أبواب المدينة وأقاموا النوائح والبواكي عليه وطالبوا بدمه، وقتلوا مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عامل الوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلا وكرما وعقلا وجمالا، ولما أجمع الحمصيون على محاربة يزيد بدمشق جهز جيشا قاتلهم قريبا من ثبئة العقاب فانهمز الحمصيون واستولى على المدينة وأخذ البيعة عليهم. قال الدينوري معللا سر قيام الحمصيين: إن المضربة تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها، وقتلهم الخليفة الوليد بن يزيد فدب بعضهم إلى بعض، واجتمعوا من أقطار الأرض، وساروا حتى وافوا مدينة حمص وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وكان يومئذ شيخ بني أمية وكبيرهم وكان ذا أدب كامل، ورأي فاضل، فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا له: أنت شيخ قومك وسيدهم

(١) في الحديث: فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا (بالزاي) قيل: هو موضعهم الذي أرادوه. وأهل الشام يسمون المكان الذي بينهم وبين العدو وفيه أساميههم ومكاتبهم، ماحوزًا، قاله في النهاية، ويقول المقدسي: إن رباطات هذه الكورة (أي فلسطين) التي يقع بينهما الغداء غزة ميماس عسقلان ماسوز أزدود ماحوز بينا يافة أرسوف.

فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد. فاستعد مروان بجنوده في تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق.

ولما بويع يزيد بن الوليد خطب وذكر الوليد بن يزيد فقال علي رواية ابن الطقطقي: إن سيرته كانت وكان خبيثة منتهكا لحرمان الله فقتلته ثم قال: أيها الناس إن لكم علي أن لا أضع حجرا فوق حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكرى نهرا، ولا أكثر مالا، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغره، وخصاصة أهله بما يغنيهم، فما فضل منه نقلته إلى البلد الآخر الذي يليه، ولا أغلق بابي دونكم، ولكم أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم كل شهر، حتى يكون أقصاكم كأدناكم، فإن وفيت لكم ما قلت فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن لم أف فلکم أن تخلعونني، إلا أن أتوب، وإن كنتم تعلمون أن أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما قد بذلت لكم، وأردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه معكم، إنه لا طاعة لمخلوق، في معصية الخالق.

وخرج علي يزيد بن الوليد بشر بن الوليد بقنسرين وعمر بن الوليد ويزيد بن سليمان بفلسطين، ووجه إلى الأردن أخاه إبراهيم ولي عهده، وقد أمروا عليهم محمد بن عبد الملك فاستمال الثائرين بالمال ففرقوا، وكانت ولايته خمسة أشهر والفتنة في جميع الملكة عامة، وقتل أهل حمص عاملهم عبد الله بن شجرة الكندي وكانوا انتخبوه واليا على جندهم، ولما توفي يزيد بن الوليد ملك إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك فامتنع أهل حمص من البيعة فجاءهم الجند من دمشق وحاصروهم.

مروان بن محمد

وقدم مروان بن محمد بن مروان من أرمينية خالعا ليزيد بن الوليد، فلما صار

بحران دعا إلى نفسه فبايع له أهل الجزيرة سرا، وأقبل في جموع من أهل الجزيرة، فلقي بشرا ومسرورا ابني الوليد بن عبد الملك معسكرين بحلب فهزم عسكريهما وأسرهما، ثم مضى حتى أتى حمص، وبلغ إبراهيم الخبر فوجه إليه سليمان بن هشام، وكان سليمان في مائة وعشرين ألفا، فلقي مروان وكان في ثمانين ألفا ومن معه من أهل الجزيرة وقنسرين وحمص فالتقوا بعين الجر فتناوشوا القتال ١٢٧ وانصرف بعضهم عن بعض، فلما كان من الغد انهزم سليمان بن هشام وأصحابه فلحقوا بإبراهيم وأقبل مروان فبايع له أهل دمشق ودخلها فخلع إبراهيم نفسه وبايع لمروان. وقد قتل في وقائع عين جر وما تقدمها وتأخر عنها ثمانية عشر ألف مقاتل. وروى الطبري أنه لما قيل: قد دخلت خيل مروان دمشق هرب إبراهيم بن الوليد وتغيب، فأذهب سليمان ما كان في بيت المال وقسمه فيمن معه من الجند، وخرج من المدينة، وثار من فيها من موالي الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه، ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية، ودخل مروان دمشق فنزل دير العالية من ضواحيها.

ولما ملك مروان بن محمد كتب إلى عمال البلدان فأنته كتبهم بالسمع والطاعة، ولم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى أتاه الخبر أن أهل حمص مقيمون على المعصية، فسار إليهم فحاصرهم حتى فتح المدينة، وقاتل الثائرين وقتل خمسمائة أو ستمائة صلبوا حول مدينة حمص، وهدم من حائطها نحو من غلوة. وثار أهل الغوطة فولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق وأميرها زامل بن عمرو، فوجه إليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر في عشرة آلاف، فلما دنوا من المدينة خرج عليهم من فيها فانهزموا واستباح أهل مروان عسكرهم وأحرقوا المزة وقرى من اليمانية، وأخذ يزيد بن خالد فقتل، وخرج ثابت بن نعيم

الجدامي بناحية الأردن فوجه إليه جيشا، وكان مروان عند دخوله دمشق ترك لأهل كل جند من أجناد الشام أن يختاروا عمالهم فوق اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعدُ على مروان، وممن ثار سليمان بن هشام في أهل حمص وقنسرين، وقصد حمص فحصنها فبايعه أصحابه بالخلافة، وخرجوا قاصدين مروان وكنوا له في طريقه في قرية تعرف بتل مير من عمل معرة النعمان فالتقى العسكران وقتل منهما خلق كثير فانهزم سليمان إلى حمص. فجاء مروان إليها وحاصرها ثمانية عشرة أشهر ثم صالحها وتسلمها، وكان سليمان بن هشام في سبعين ألفا وقتل زهاء ثلاثين ألفا.

ادبار الأمويين

وما زالت الحال على ذلك حتى استقامت لمروان الشام كلها، ثم قوي أمر أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية بخراسان، ودعا علنا لبني هاشم وقتل عسكر الأمويين. ولما بايعوا بالخلافة في الكوفة لأبي العباس سرا وجه عمه عبد الله بن علي لقتال مروان، وكان مع مروان مائة ألف مقاتل ولا يكون مع عبد الله بن علي إلا الأقل من ذلك، فلقية بالزاب قرب الموصل، فحاربه عبد الله بن علي فهزمه، ثم لم يزل في إثره وهو منهزم لا يلوي على شيء حتى أخرجه إلى الجزيرة، ثم أخرجه من الجزيرة إلى الشام، فجعل مروان لا يمرّ بجند من أجناد الشام إلا انتهبوه، فلما اجتاز بقنسرين وحاضر حلب أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ووثب أهل حمص وقالوا: مرعوب منهزم، فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على أميال فناشدهم فأبوا إلا مكائرته وقتاله، فنشب القتال وأثار كمينين من خلفهم وكان قد نصبهما فهزمهم وقتلهم خيله.

وسار مروان إلى دمشق فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسي والمذحجيون أي اليمانيون جميعاً، ثم تَرَ بفلسطين فوثب به المحكم بن ضبمان بن روح بن زنباع لما رأوا من إدبار الأمر

عنه. قال الدينوري: جعل مروان يستقري مدن الشام فيستنهضهم فيروغون عنه ويهابون الحرب فلم يسر معه منهم إلا قليل. قالوا. ولما صار مروان إلى دمشق وهو مضمّر أن يتحصن بها لولا ما انتهبه أهلها ووثب عليه من بها من قيس فدخلها عبد الله بن علي العباسي عنوة، ومضى مروان إلى فلسطين هاربا حتى جاء مصر، فقاتل مروان في قرية بوسير قرب القاهرة حتى قتل وذلك في ذي الحجة ١٣٢، وبموته انقرض ملك بني أمية في المشرق وهو الرابع عشر من خلفائهم. وكان من رأيه أن يقطع الدرب وينزل بعض حصون الروم ويكاتب ملكها ويجمع عليه رجاله وشيعته إلى أن يرتئي في أمره، ولكن حُمّ القضاء ولا راداً لحكمه.

دولة بني مروان وحساننا

انقضت دولة بني مروان، وكانت دولة عربية صرفة سارت مع المدنية أشواطاً مع انشغالها بالفتح وقيام الخارجين عليها، ولم يبطلوا في كل دور غزو الروم، وكانوا على الأكثر يَسُبُون ويقتلون ويغنمون ويخربون حصونهم، والروم يغزون الشام وآسيا الصغرى وقد يصلون إلى إنطاكية ودلوك مرعش. وكان أكثر ملوك الأمويين من الحزم والعلم وحسن السياسة والإدارة على جانب عظيم، والسواس منهم معاوية وعبد الملك وهشام، وليس كالوليد في باب الاضطلاع بإقامة المصانع، ولا مثل عمر بن عبد العزيز في تطهير المملكة من المظالم وإحياء سنن العدل والمراحم ولا كسليمان ببعث النظر، وما منهم إلا العالم والشاعر

والخطيب والسياسي، وقد فتحت عليهم الأقطار فنشروا فيها اللغة والدين على أيسر سبيل، وهذا مما لم يوفق إلى مثله غيرهم، ووضعوا أسس النظام في الممالك التي دوخوها وعرفوا ما يصلحها، وكانت إرادتهم أشبه باللامركزية في عهدنا، يبعثون بالعامل فيحل المسائل باجتهاده على رأي أهل الشرف والمكانة في القطر

الذي يتولاه، ولا يفاوض مقر الخلافة إلا في عويص الأمور، وقد نصب علم الأميين الأبيض في المشارق والمغرب، نصب في الصين كما نصب في بواتيه في فرنسا، هذا وقد كثر المخلصون لدولتهم إلى أواخر أيامهم وقل المنتقضون عليهم المتوثبون على خلافهم.

للدول كما للأفراد أعمار طبيعية. وملك بني أمية لم يطل أكثر من ألف شهر كاملة لأنهم ملكوا تسعين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما، يوضع من ذلك أيام الحسن بن علي وهي خمسة أشهر وعشرة أيام، وأيام عبد الله بن الزبير إلى الوقت الذي قتل فيه وهي سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام. فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر.

ذهب بنو أمية بالفضل في جمع الشمل، ولولا قيامهم هذا القيام المحمود يحدوه الانتباه لكل ما يعلي شأن دولتهم لما ثبتت الدولة الإسلامية هذا الثبات الذي استغرب منه الخُبر والخبر. قال المقرئزي: أظهر الرسول بني أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله مما فتح الله عليه من البلاد، فقوي ظنهم وانبسط رجاؤهم وامتد في الولاية أملمهم، وضعف أمل بني هاشم وانقبض رجاؤهم وقصر أملمهم. قال: وقد ظهر لي أن ولاية رسول الله بني أمية الأعمال كانت إشارة منه إلى أن الأمر سيصير إليهم. قال: إنه عليه السلام توفي وثلاثة أرباع عماله منهم.

وطد مؤسس ملك الأمويين السلطان بالشام وبجند من أهله قاتل هو وأخلافه، واشتهر جند الشام بالطاعة حتى تمنى علي بن أبي طالب لو يقايض على عشرة من جنده بواحد من جند معاوية، فقال في إحدى خطبه: لوددت والله أن معاوية صارفتني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم. فتحت هذه الفتوح بنفس قوية وعقول راجحة وسياسة حازمة، وقاتل زعمائهم وأبناءؤهم بل بناتهم ونسائهم حتى فتحوا الشام. وكان من جملة توفيق معاوية أنه عرف طبائع هذا القطر وخصائصه من أبيه وآله وكانت لهم به علائق كثيرة في الجاهلية، ثم درس أحواله بنفسه فكان يعرف قوته معرفة حقيقية، ولذلك لم ينل منه علي بن أبي طالب منالا لأنه كان أخذ لهذا الأمر عدته وتدبره ودبره كان يأخذ بآراء أشرف القوم والتزول على حكم وفود الأرجاء، وكانت وفودهم تشبه ما يسميه الإفرنج بمجالس الولايات. وكان لمعاوية وآل بيته مجالس يعقدونها في المسجد الجامع تدور حول سياسة الأمة في الأكثر، وخطاب الخليفة يوم الجمعة بمثابة ما نسميه في عرف سياسة اليوم خطاب العرش، ومجالسهم أشبه بمجالس النواب والشيوخ والولايات، فلم يكونوا إلى الاستبداد بالرأي في معظم حالاتهم.

وفي الحق أن معاوية بن أبي سفيان أورث الإسلام مجدا، وأولى العرب عزة ومنعة، وكان العربي حيث نزل من الأرض محترما، مرعي الجانب أمنا على نفسه وحقه، ولم يوفق إلى ذلك إلا بحسن السياسة وصائب التدبير. ذكر المسعودي، وهو من المنحرفين عن بني أمية، أن المسلمين غزوا في أيام معاوية فأسر جماعة منهم، فأوقفوا بين يدي الملك فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفا بين يدي الملك فلطم حرَّ وجهه فألمه، وكان رجلا من قریش فصاح: وا إسلاماه، أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا، وضيعت ثغورنا،

وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا. فنمي الخبر إلى معاوية وغضب وأقام الفداء بين المسلمين والروم وفادى بذلك الرجل، فلما صار إلى دار الإسلام دعاه فبرّه وأحسن إليه. وبعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور وكان به عارفاً كثير الغزوات في البحر، صُمِّلَ^(١) من الرجال مرطان بالرومية، وأعطاه كل ما طلب، وهياً له مركبا وأوعز إليه أن يتظاهر بأنه يتاجر مع روم القسطنطينية، وما زال على ذلك سنين حتى أسر الصوريّ البطريرق الرومي الذي كان لطم القرشي وأتى به إلى معاوية في قصة طويلة. فقال معاوية: عليّ بالرجل القرشي فأتى به وقد حضر خواص المسلمين وقال له: قم واقتص من هذا البطريرق الذي لطم وجهك على بساط معظم الروم فإننا لم نضيعك ولا أبحنأ دمك وعرضك، فقام القرشي ودنا من البطريرق فقال له معاوية: انظر لا تتعدّ ما جرى عليك منه. وانقلب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها وقال: ما أضاعك من سودك، ولا خاب فيك أمل من أمّلك، أنت ملك لا تستضام، تمنع حماك وتصون رعيتك. وأحسن معاوية إلى البطريرق وحمل معه هدايا إلى الملك وقال له: ارجع إلى ملكك وقل له: تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك، فقال ملك الروم: هذا أمكر الملوك وأدهى العرب. ولهذا قدمته العرب عليها فساس أمورها والله لو هممّ بأخذي لتمت له الحيلة عليّ.

قواد الأمويين وأسباب انقراضهم

نشأ للأمويين رجال عظام في الحرب والسياسة والحكم، مثل زياد بن أبي سفيان وعتبة بن أبي سفيان وموسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة

(١) الصمّل: كعتل الرجل الشديد الخلق العظيم. والرطانة (بالفتح ويكسر) الكلام بالعجمية ورطن له رطانة ورطانة كلمة بها وتراطنوا تكلموا بها المرطان الذي يتكلم بالعجمية.

بن مسلم وعقبة بن نافع الفهري وبُسر بن أبي أرطاة وشرحبيل بن السمط
وحبيب بن مسلمة ومسلمة بن عبد الملك وأسد بن عبد الله وعبد الرحمن
بن أم الحكم الثقفي ومالك بن عبد الله الذي كان أميراً على الجيوش في
غزوة الروم أربعين سنة أيام معاوية وقبلها وأيام يزيد وأيام عبد الملك بن
مروان ولما مات كسر على قبره أربعون لواء لكل سنة غزاها لواء. وروح
بن زنباع وزفر بن الحارث الكلابي والجراح بن عبد الله الحكمي وخُبَيْش
بن دلجة القيني وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي وميمون بن مهران
وخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد وعمر بن عبيد الله بن معمر وخالد بن
عبد الله القسري وعثمان بن الوليد ويزيد بن المهلب والمهلب بن أبي
صفرة وعمرو بن هبيرة الفزاري وعبد الله بن أبي بكره والقاسم بن محمد
الثقفي والعباس بن الوليد ومروان بن الوليد وخالد بن كيسان وعبد الله بن
عقبة بن نافع ومعاوية بن هشام وعبد الرحمن بن معاوية بن خُدَيْج
وإسحاق بن مسلم العُقَيْلي ونصر بن سيار وعبد الله بن سعد بن أبي سرح
ومعاوية بن خُدَيْج وعبد الرحمن بن حبيب وزهير بن قيس البهلوي
وحسان بن النعمان وميسرة بن مسروق العبسي وعبد الله بن قيس ومالك
بن هبيرة السكوني وفضالة بن عبيد الأنصاري وسفيان بن عوف وعبد الله
بن مسعدة الفزاري وجنادة بن أمية الأزدي ومحمد بن مالك وعمرو بن
مرة الجهني وعلقمة بن يزيد الأنصاري والضحاك بن قيس ويزيد بن
شجرة وعياض بن الحارث والمخارق بن الحارث الزُبَيْدي وزامل بن
عمر العذري وأبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان وسبيع بن يزيد
الأنصاري ويزيد بن الحر العبسي وعلقمة بن حكيم الكناني ويوسف بن
عمر ومحمد بن القاسم الثقفي ومالك بن عبد الله الخثعمي وحمزة بن
مالك الهمداني وغيرهم.

دوَّخ هؤلاء القواد الأقطار على بعد المواصلات مع مركز الخلافة وفتحوا الفتوح العظام بهممة لم تعرف الملل، وأدخلوا فيها نظامهم وعاداتهم وأداروها أي إدارة، فامتد ملك الأمويين - كما قال أحد كتاب الإفرنج - من أقاصي جبال هملايا في الشرق إلى أداني جبال الألب في الغرب. ثم انحلت هذه المملكة المساوية تقريبا لمملكة قياصرة رومية على وجه غريب من السرعة.

وكان مروان بن محمد الجعدي - الذي لقب بالحمار لصبره على الحرب - من أمثل خلفائهم وكان شديد الرأي ميمون النقيية حازما، فلما ظهرت المسوِّدة ولقيهم كان ما يُدبّر أمرا إلا كان فيه خلل. فما السريا ترى في انحلال هذا الملك الضخم والقوة تدعّمه وفيه أفراد أفذاذ مثلوا النبوغ العربي أجمل تمثيل لا تستطيع دولة من دول الحضارة الحديثة أن تقوم بأحسن منه، مع اعتبار الفرق بين عصر الدولة الأموية وهذا العصر؟ نظن السرف في ذلك أن بني العباس كانوا قد أجمعوا أمرهم وهيئوا أسباب قيام دولتهم على صورة متينة جدا، وكان منشؤها من خراسان والعراق وهما القطران اللذان أفحش القتل فيهما الحجاج بن يوسف الثقفي حتى قتل من أهل العراق مائة وعشرين ألفا مدة حكمه، واشمأز الناس من بني أمية بسببه وسبب من يستسهلون من قوادهم إهراق الدماء فكثرت الأحقاد والحفاظظ ونغلت نيات الأمة، واختلف الأمويون بينهم وأصبحوا في هرج يقتل بعضهم بعضا.

وقد نسب الخضري أسباب سقوط دولة بني أمية إلى استيلائهم على الخلافة بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة، فإن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته، على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الأمر ورضي الناس عنه، والقلوب منطوية على ما فيها من كراهية ولايته، وكان في الأمة فريقان لا يرضيان عنه: الخوارج

وشيعة بني هاشم، واستعمل ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة فألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم. ومن رأيه أن معاوية زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي بن أبي طالب على منابر الأمصار هو وأمرؤه حتى تأججت النيران في صدور شيعته وأن عدة عيوب كانت سببا في القضاء عليهم. الأول: مسألة ولاية العهد، فإن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر، فانشق بيتهم على نفسه. الثاني: إحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام مشددا النعي عليها. الثالث: تحكيم بعض الخلفاء من بني أمية أهواءهم في أمر قوادهم وذوي الأثر الصالح من شجعان دولتهم، ففسدت قلوب الناس، حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية. وعلل رفيق العظم سقوط الدولة الأموية بارتكاب الأمويين أغلطا منها المبالغة باضطهاد العلويين، وتسميم أبي هاشم بأمر سليمان بن عبد الملك، ومنها أنهم فقدوا أعظم الرجال الذين كانوا يخدمون بإخلاص، فأخرجوا خالد بن عبد الله

وقتية بن مسلم ويزيد بن المهلب وموسى بن نصير ففقدت الدولة بفقدهم وفقد أمثالهم جانبا لا يقدر من قيمتها وانحطت هيبتها، ومنها تباعد أطراف مملكتهم حتى تعذر ضبطها مع صعوبة المواصلات، وأن الأمويين حافظوا على خشونتهم إلى خلافة هشام، وأخذ الخلفاء بعد الوليد بن يزيد يميلون إلى الترف والراحة، يضاف إلى ذلك انقسام العرب في خراسان إلى مصرية ويمانية وتنازع رؤسائهم. قال: إن ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الأموية ويعزى إليه دمارها فمبالغ فيه وما كان منه صحيحا فهو في نظر المؤرخ ثانوي. والحقيقة أن الخلفاء الأمويين كانوا أشداء على خصومهم دون سائر الناس، وكانوا في منزلة من العناية

بالرعية والاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة.

سئل بعض شيوخ بني أمية عقيب زوال الملك عنهم: ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضياعنا فخربت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقتهم على منافعنا، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جنودنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقللة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا.

قد يغتر بعض من لم يساعدهم الوقت أن يمحصوا الحقائق ليصلوا إلى لباب التاريخ الصحيح، فيأخذون روايات بعض المؤرخين الذين كتبوا بعوامل المذاهب السياسية أو نقلوا الأخبار على علاقتها كما رأوها في مصادر ضعيفة وأخذوها قضية مسلمة، من ذلك الطعن في أخلاق يزيد بن معاوية، فإن الروايات المنقولة في هذا الشأن لو نقدت نقدا صحيحا لرأينا أنها مدخولة على الأكثر أملت أهواء الخصماء، ولطالما رأينا الناس إذا أرادوا النيل من أحد العظماء ينخدعون بأقوال يلفقها عليهم خصومهم، وربما نسبوا لبعضهم الفسق والفجور وأكل الأموال بالباطل، وهم من أكمل الناس أخلاقا وفضلا. إذا سلمنا أن معاوية أخطأ بحسب ما يقوله الفريق المعتدل بتوسيده الخلافة إلى يزيد وفي العرب يومئذ من هم أفضل منه فإنه كان يعتقد أن ابنه يصلح للخلافة وأن قوة الأمة مجتمعة على آل أبي سفيان. والدليل أنه كان إذا عرض لمعاوية مشكلة من المشكلات بعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها واستسهال معضلاتها، فلم يكن يزيد إذا بالصورة التي صورها بها أعداؤه. خطب معاوية فقال: اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من ذميه فبلغه ما

أملت وأعنه، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لوده وأنه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك.

قال الطبري: إن يزيد كان صاحب رَسلة أي كسل وتهاون، وإنه كف عن كثير مما كان يصنع أي لما وسدت إليه الخلافة. وقال غيره: إن يزيد كان يحب الصيد ويربي القروود والكلاب مما عدوه عليه. وهذا لا يقدر في العدالة، بل ربما كان مما يعين على الجهاد لترويضه الجسم والدهن، أما الفسق والفجور فلم يثبت من طريق مؤتمن، فإذا فرضنا أن معاوية أخطأ في إعطائه ولاية العهد لابنه بطرق استعمل فيها بعض الشدة، وأن يزيد ارتكب عماله من قتل آل بيت الرسول أمرا نكرا فلا يجوز من ذلك الطعن بشخصيات كبيرة، والعقل يستبعد التصديق بما قاله خصوم بني أمية عنهم، ولو كان يزيد شريبا خميرا كما يزعمون أو يرتكب أمورا لا تسمح بها الشريعة ولا تليق بشأن الملك، والدين، وأصحاب أصحاب رسول الله أحياء، وأعداؤهم من العلويين بالمرصاد، لقتلته أسرته نفسها، كما فعلت بالوليد بن يزيد بعد ستين سنة من مهلك يزيد بن معاوية. والغالب أن يزيد أدخل في العادات كأبيه أشياء أنكرها بعضهم، ووجدوا السبيل إلى الطعن فيه، وكان تعلمها من عشرته بعض أبناء الروم في الشام.

سئل عبد الله بن عباس عن معاوية فقال: سما بشيء أسره واستظهر عليه بشيء أعلنه، فحاول ما أسر بما أعلن فناله، وكان حلمه قاهرا لغضبه، وجوده غالبا على منعه، يصل ولا يقطع، ويجمع ولا يفرق، فاستقام له أمره وجرى إلى مدته. قيل: فأخبرنا عن ابنه قال: كان في خير سبيله، وكان أبوه قد أحكمه وأمره ونهاه فتعلق بذلك وسلك طريقا مذلا له. وسئل علي رضي عن بني أمية فقال: أشدنا حُجْزا صبورا وأطلبنا للأمر لا ينال فينالونه.

الخلاف بين الأمويين وخصومهم من العلويين ما زال يقوى ويضعف، وما هو إلا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك، وليس من الدين في شيء. فليس إذا من العتق أن تتسلسل هذه الأحقاد في الأمة وتنفق شيئا، وتظهر بمظهر النصب أو التشيع، ويزكي فريق من يحبهم حتى يخرجهم عن طور البشر، ويطعن في آخرين حتى يسلم عنهم كل ما يمتازون به من الصفات الكاملة ويخرجوهم عن الملة. أهل الإسلام يحبون الخليفة الرابع، ويعرفون له صفات غزا يفاخرون بها على غابر الدهر، ولكن من تحبه لا يجوز لك أن تغضي عن هفواته، أو أن تذكر لخصمه مزاياه.

أريد أن أقول: إن مسألة الخلافة بين علي ومعاوية قد مضى عليها الزمن، وكان لكل منهما اجتهاده، وهي من المسائل المؤلمة في تاريخنا ينبغي لنا أن ندرسها بإنصاف لا أن نقول مع القائلين ونسكت عما شجر بينهم، ولا أن نبالغ فيما وقع ونتعصب لفريق على آخر، فالأمة يجب عليها أن تعرف مواطن الضعف والقوة من جسمها، وتكشف حقائق ماضيها لأنها ابنة حوادث ماضية، والواجب في البحث أن لا يثير في النفوس أحقادا، ولا ينشئ في أجزاء الأمة فرقة متلفة، ولا يرتكب معه سوء أدب مع عظماء أسسوا مجد الأمة على أمتن الدعائم، ووضعوا بناءها على القومية العربية، وكانوا مثال التساهل مع أبناء الأديان الأخرى.

أهل الإسلام في الشرق جديرون بأن يكونوا كأهل النصرانية في الغرب، تحاربوا حروبا دينية سالت فيها الدماء أنهارا بين البابوي والبرتستانتي، ثم جاءت القرون الحديثة فقضت على التحيزات، وصاروا في المسائل الوطنية والقومية متلازمين تلازم اللام للألف، وإذا ذكروا ما ارتكبه أجدادهم في هذا الشأن خجلوا ووجموا. الأمويون كالعُلويين بشر يخطئون ويصيبون، فلا يليق بنا أن نغض من الأمويين لأنهم لم يتنازلوا

عن ملكهم للعلويين، ولا ننكر أن إصابتهم كانت كثيرة جدا في جنب خطيئاتهم، وأهل الشام قبل كل شعب عربي يجب عليهم أن يفاخروا بتاريخ الأمويين ويمعنوا النظر فيه طويلا، ويعرفوا أن لكل دولة كما لكل فرد ما يعدُّ لها وعليها.

بنو أمية أسسوا دولة عظيمة وفتحوا الفتوح ونشروا كلمة التوحيد وبثوا اللغة العربية في الممالك التي دوّخوها فماذا عمل خصومهم لو أنصف المتشيعون لهم؟ لم يوفقوا من قبل ولا من بعد إلا أن يدلوا على الأمة بشرفهم، وأنهم خير من أمية في الجاهلية والإسلام، وأن الواجب على المسلمين أن يخضعوا لهم مهما كانت حالهم لشرف هذه النسبة فقط، ولقد قامت لهم عدة دول في أقطار مختلفة وكان مصيرها كلها الانحلال، ولذلك كان من المعقول أن لا يغض من قدر العاملين خصوصا من كانت حسناتهم تربو على سيئاتهم، إن كان هناك ما يتجاوز في تسميته سيئات. الملك لا يقوم بالزهد والتقوى ولزوم المساجد والخطب والحماسة والإدلال بصفات طبيعية اتصف بها صاحبها. الملك يحتاج كما كان الأمويون إلى بذل وتسامح وتماسك وعمل نافع بعيد عن الدعوى. في الصفات الأولى تتمثل حالة العلويين، وفي الثانية تتمثل حالة الأمويين.